القيم الخلقية للشعر الديني في العصر الزياني

الأستاذ : مولاي البودخيلي سيدي عبد الرحيم

كلية الآداب و اللغات - تلمسان -

ملخص:

لا نبالغ إذا اعتبرنا أنفسنا السابقين إلى دراسة هذا الموضوع في الأدب المغربي القديم و نقده، علما أن طبيعة الموضوع متأثلة في التاريخ الإنساني بعامة و ثابتة بأصولها و مفاهيمها و تعاريفها اللغوية و الاصطلاحية في شعر عربي من عهد زياني، بات لزاما علينا أن نحدد في خلاله أهم القيم الخلقية التي أثارها الشعراء في هذه الفترة والطريقة التي حلت بها في أشعارهم، وعلاقتها بالناظم نزولا عند الدواعي التي بعثت على توظيفها، كما هو الشأن أن نتحقق من أن موضوعنا ذو طابع ديني محض نؤكده في هذه الدراسة. 1433ه - 2011م.

مقدمة:

يتضح بجلاء ودقة وعمق المعنى الاصطلاحي والماهية الحقيقة للأخلاق في قوله تعالى فـي حـق المصطـفى محمد (صلعم) : ﴿ وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾1أخذ عليه الصلاة والسلام نصيبه الكامل من الصفات الخلقية العظيمة فطرة وكذلك اكتسابا طبقا لحديثه الشريف الذي يجل فيه من زنة الخلق الحسن ويرفع به مقام المخلوق بالمحامد فيقول (صلعم) :(مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَ إِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَ الصَلاَةِ"2 (وَ الخُلُقُ وَالخَلِيقَةُ السَّجِيَّةُ...الخُلْقُ بِضَمِّ اللاَّمِ وَسُكُونِهَا هُوَ الدِّينُ و الطَّبْعُ وَ السَّجِيَّةُ.)3فيتضح لنا مما سبق أن الأخلاق منها ما يتصل بالعوامل بالذاتية يختص بها الإنسان من مثل الفطرة والطبع و الجبلة والسجية و الدين ومن الأخلاق ما لها صلة بالوالدين والأسرة و المحيط والمجتمع على الخصوص. كما أن خصال المرء في صورتين إحداهما باطنة خفية لا تدركها إلا الذات وخالقها ، و أخراهما ظاهرة وصورة للأولى أو لبعض منها أو لغيرها ما لم توفرتها.

فتظهر أخلاق الإنسان تعبيرا عما أضمرته الذات من خلق، كرجل يكن محبة لرجل أو يضمر له كراهة، فهذا الكن والإضمار من الأخلاق الباطنة الخفية المستورة، أما إذا عبر عنها كأن يثبت محبته للإنسان فيؤاخه وللسائل فيكرمه وللمظلوم فيصنفه ولليتيم فيكلفه و غير ذلك مما له علاقة بهذه الصفات وصدورها، فإنها سلوكات تدلنا على معاني الأخلاق الظاهرة، بيد أنها صورة لما كنَّه الرجل من حب تجاه من صافاه وجاد عليه و آتاه حقه وأحسن إليه.

النزعة الأخلاقية الدينية في الشعر الزياني

لقد ارتبطت النزعة الأخلاقية بالدين في الشعر الزياني بأغلب الشعراء الذين اتصلوا بالدولة الزيانية عن قرب و عن بعد، و يختلفون في الأخذ بهذا المنحى تبعا لأخذهم بنوازع خلقية متنوعة تنوع الدوافع التي بعثت عليها والأغراض والمعاني والغايات التي سيقت إليها.

و تكاد النزعة الأخلاقية عموما تتأسس على مبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه، مما يغني عن الفصل بين نزعة خلقية و أخرى فالشاعر استعمل نزعة أخلاقية لا تنفصم عن مقاييس الدين و قواعده المسنونة، و لذلك تفاوت الأخذ بالقيم الخلقية من شاعر لآخر، هذا لكون النوازع الخلقية وردت في إشارات ضمنيةو إما لأن الشاعر استثمرها لذاتها أو لأنه تكرر استعمالها لدى أغلب الشعراء، أو قل استعمالها عند بعض منهم.

و يمكننا أن نستوضح النزعة الخلقية الدينية عند بعض الشعراء الذين يستحيل ذكرهم جميعهم لكثرتهم من وجهة أو لندرة ما ينسب إليهم من شعر في مصادر هي الأخرى تدلنا على أن طبيعة هذا الشعر مرتبطة بالتوجه العقائدي الديني للشاعر من وجهة ثانية، ولذلك سنلتزم في دراستنا لهذه القضية بتقفي طبيعتها الدينية في جملة أشعار للشعراء الشوذي وابن زاغو والتازي والبرنسي والمناوفي والمقري نظرا إلى أنهم تمثلوا هذه النزعة في شعرهم بكل دقة و عمق و عناية فائقة.

وقد عرفنا بشخصية الشاعر أبي عبد الله الشوذي من قبل و اعتبرناه من أفاضل القوم تنشئة وتربية وتعلما ودينا وخلقا وورعا وزهدا، بل إنه يعد من أكابر الصوفية في عصره، إذا نزع منزعا خلقيا فهو يربطه بمدى تأثره بالدين الإسلامي ومعانيه الجليلة ،كما يشاء أن يصله بذاته وبحياة مجتمعه، لكن الطابع الغالب على هذا النزوع هو توجيه الأخلاق توجيها دينيا صرف، حيث أشار في شعره في غرض الزهد إلى خلتي الفطنة و البلادة، و ينظر إلى أن معاني الحلم الفطنـةوالتؤدةو الحكمة فليس الحليم في تصوره ببليد لأن الحليم يستجيب بالفطرة الدينية إلى الحق من حيث هو حق واجب عليه الإصغاء إليه و العمل به، أما البليد فلا صلة له بالحكمة و التؤدة و الفطنة لأنه من الجاحدين في الحق، و الشاعر دعته عقيدته السمحة في إيمانه بالواجب الحق و التعبير عن نزوعه الأخلاقي قائلا:

إِذَا نَطَقَ الوُجُودُ أَصَاخَ قَوْمٌ   بِآذَانٍ إِلَى نُطْقِ الوُجُـودِ

وَذَاكَ النُطْقُ لَيْسَ بِهِ اِنْعِجَـامٌ   وَلَكِنْ دَقَّ عَنْ فَهْمِ البَلِيـدِ

فَكُنْ فَطِنًا تُنَادِي مِنْ قَرِيــبٍ   وَلَا تَكُ مَنْ يُنَادِي مِنْ بَعِيـدِ4

ويرتبط الوازع الديني بالشاعر محمد المقري الذي وظف خصالا حميدة لغير ذاتها، بل ربطها بذاته معبرا عن نزعة أخلاقية ذاتية حيث اهتدى في شعره إلى التعبير عن انصرافه عن الهوى و التعلق بالصبر والصدق مبديا نقاءه و طهره،قال:

رَفَضْتُ السَّوَى وَ هُوَ الطَّهَارَةُ عِنْدَمَا   تَلَفَّعْتُ فِي مِرْطِ الهَوَى وَ زِينَتِي5

فالشاعر يقابل بين معنيي السوى و الهوى ومعناه ما تصبو إليه النفس في تلبية أهواءها وميولها الغريزية وبين الهوى زينته الذي يقصد به معنى روحيا هو الحب الديني بمحبة الله و رسوله ومن كان على سنته ويربط الشاعر بين هذه الخصلة التي تفانى في تحصيلها وبين شيمة الصبر على حاله دون أن يصرح بالمقصود في توظيف هذه الخلة،إنما اكتفى بالتدليل على قوة صبره فيما هو عليه من مقام، قال:

وَ إِنِّي عَلَى صَبْرِي كَمَا أَنْتَ وَاصِفُوَ حَالِي أَقْوَى القَائِمِينَ   بِحُجَّـةٍ6

ويعرض المقري إلى خلة الصبر في سياق آخر يدل فيه على علاقتها بقضية ترتبط ببعض من مجتمع عصره وهي الفقر وإن كان لا يقصد أصلا إلى الفقر في المال والولد و الزاد الدنيوي بل يقصد إلى معنى ديني روحي و هو الفقر في إدراك ما يرتضيه الله تعالى لعباده من أسرار يودعها إليهم علوما ومعارف شذ من يدركها من الناس إلا القليل منهم من تلفع في مرط الهوى زينة له كما قال المقري في إشارته إلى الصبر على حاله ومبينا شكره على ما كسبه من قوة صبر و فقر بديلين للغنى كما يوحي في ذلك بقناعته والإيمان بقضاء اللَّه وقدره المكتوب المقسوم على عباده و الشاعر فيما يومئ إليه يدعونا إلى التحلي بالصبر و القناعة و التوبة معا،قال :

وَفَقْرِي مَعَ الصَّبْرِ اصْطَفَيْتُ عَلَى الغِنَى   مَعَ الشُّكْرِ إِذَا لَمْ يَحْظَ فِيهِ مَثْوَبَتِي7

ولعل نزعة محمد المقري هذه قد دفعت به إلى تأسيس خصلة الصدق على عيار ديني صرف يربط إثره الخصلة بسلوك ديني هو التوبة ،وهي كلمة كثيرا ما يلجأ إلى توظيفها في شعره ويدلنا أنه مهما اكتسب من خلال محمودة طيلة حياته، ورغم تجاربه وخبراته فإنه فضل لنفسه خلة هي الأنسب و الأليق به في كل حال ومقام ،وهي صدق التوبة قال :

وَ لَوْ لَمْيُحَدِّدْ عَهْدَ عَقْدِ خِلَّـةٍ   قَضَيْتُ وَلَمْ يَقْضِ المُنَى صِدْقَ تَوْبَةٍ8

وإذ تميز العربي و المسلم عموما بالأنفة و حبه للسؤدد و التعالي و تفانيه في بلوغ هذه المرامي فإن محمد المقري كغيره من شعراء عصره،جهد نفسه لتحصيل هذه الخصال المحمودة إشارة منه إلى العزوالرفعةويلحُّ عنرغبةفيالظفربهمامهماكانحاله،و مقامه في هذه الحياة، و لذلك فهو لم يصرح بالمقصود من استعمال الخصلتين العزة التي تحققت في نظره بعد تلوين نفسه بألوان يعني بها التغيير و التحسين في حياته الخلقية و الدينية ،وكذلك مكنته هذه العزة التي منَّ الله بها عليه من إدراك الرفعة عند الله تعالى دائما بحسب مقام الشاعر الديني و الخلقي بين الناس و أهل عصره ،و في تعبير عن نزعة خلقية دينية يقول المقري :

وَ بَدَّلْتُ بِالتَّلْوِينِ تَمْكِينَ عِـزَّةٍ   وَ مِنْ أَحْوَالِ قَامَاتِ رِفْعَـةٍ9

وكان للدين الإسلامي أثره في نفسية ابن زاغو المغراوي بمثل ما كان للحياة الاجتماعية أثرها في شعره، ولذلك كانت نزعته الأخلاقية نتيجة للدوافع الدينية تلحق بها عوامل اجتماعية طابعها ديني أي إن الشاعر ربط إشاراته إلى الأخلاق الفاضلة بالإسلام و بالمجتمع ، و هو إزاء ذلك سلك مسلك السابقين ممن امتهنوا التعليم ،فنصحوا المجتمع وأرشدوه إلى الخير ، بحيث إن من الشيم الخلقية التي دعا إليها الشاعر و حث مجتمعه على التحلي بها خلتي السلم و الحذر وتجنب الإنسان الأذى و السوء ،و قد أشار الشاعر إلى قضية السلم في غرض ديني هو الزهد بيد أنه لا يتحقق السلم في نظره إلا إذا اهتم الإنسان بما يخلص به إلى الفلاح يوم القيامة بخاصة.

وإن من بين ما يهتم به الخلق شيمة السلم دون العنف و مجانبة ذوي السوء ، و السعي إلى الأخذ بكل ما يجني وراءه كل خير ، و الشاعر إذ ذاك ينم عن حكمته و تجربته في الحياة التي جعلته يفرق بين أهل السلم وبين أهل العنف بحيث المسالم في نظره قنوع ، وأما الظالم فطامع قال:

فَهَذَا الخَلْقُسَالِمُهُمْ وَ دَعْهُمْ فَخُلْطَتُهُمْتَقُودُ إِلَى النَّـدَامَةِ

وَ لَا تَعْنِي بِشَيْءٍغَيْرَشَيْءٍيَقُودُ إِلَى خَلاَصِكَ فِي القِيَّامَةِ10

وإذا كان ابن زاغو شاعرا حكيما ، كثيرا ما اتصل بالمجتمع ، فان تجربته في الحياة هي التي جعلته يتصف بالسلم ،بحيث دفعت به هذه النزعة إلى أن يتأدب و يتخلق بالخلق المحمود ،ومن باب الاستعارة أراد الشاعر أن يبين قوة نزعته الخلقية في الحياة من وجهة ، وأن يكشف عن حكمته وتجربته اللتين دفعتا به إلى نشر محاسن الأخلاق في رسالته الشعرية إذ أشار إلى خلقه هذا، الذي أكسبه الزمان إياه مع أن الزمان ليست له علاقة بالأخلاق و ليست له القدرة على تأديب الإنسان ، قال مفتخرا بتأدبه:

وَ أَدَّبَنِي الزَّمَانُ فَمَا أُبَالِـــي هَجَرْتُ فَلاَ أُزَارُ وَ لَا أَزُورُ11

وإن ما يمكن أن نستشفه من نزعة الشاعر الأخلاقية هو الاهتمام جملة بالقضية الخلقية و ربطها بالإسلام، الذي يعد المولد الوحيد للأخلاق الفاضلة، وهكذا فإن طبيعة نزعته لا تعدو في الآن ذاته أن تكون دينية.وقد شارك إبراهيم التازي شعراء عصره في نزعة أخلاقية دينية ارتبطت بذاته حينا،كما ارتبطت بمجتمعه حينا آخر اللهم إنه في تصوير نزعته هذه دعته الضرورة الدينيةو ظروف حياته وسط مجتمع متباين النوازع الخلقية، لينهج الشاعر منهج سابقيه من الشعراء،إثر حثه على التحلي بالأخلاق الفاضلة مستعملا التعليم و النصح و الإرشاد و توجيه المجتمع توجيها خلقيا دينيا،قال:

إِنْ شِئْتَ عَيْشًا نَعِيمًا وَ اتِّبَاعَ هُدًى فَاسْمَعْ مَقَالِ وَ كُنْ بِاللَّهِ مُعْتَصِدًا12

و يدلنا هذا البيت على خلق الشاعر ذي الطابع الديني الاجتماعي،بيد أنه يسعى دينيا إلى تربية إنسان عصره الذي لا تتم تربيته إلا بعد أن ينهج طرق الهداية و الاعتصام بالله،و ذلك لأن تمسك المرء بهذين المبدأين

هو تمسك بالخلق الحسن،حيث عقد الشاعر صلة بين طريق الهداية و التقوى و بين شيم خلقية فاضلة في إشارته إلى الظلم يدعو إلى العدل و الإحسان إلى السائل و مساعدة المقهور المكسور،و هذا ما يدل على غاية الشاعر في ذكره لهذه الخصال الهادفة إلى نبذ الظلم و البخل و القهر،قال :

وَ تَنْصُرُ مَظْلُومًا وَ تَرْفَعُ خَامِلاً وَ تُكْسِبُ مَعْدُومًا وَ تُجْبِرُ ذَا كَسْرٍ13

ثم يذم التازي الدنيا على أنها عوار و أن من العوار الفحشاء، و الفحش ليس من فضائله، لأن من خصاله الحميدة عفته التي تبدو جلية في قوله:

وَعَدِّعَنْ الرَّبَابِ وَ عَنْ سُعَادٍ وَزَيْنَبٍ وَالمَعَازِفِوَ العَقَارِ

فَمَا الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَابِشَـيْءٍ وَمَا أَيَامُهَـاإِلَّاعَـوَارِ14

و يربط التازي تخلق الإنسان بالدين،و حري بالمتأدب في نظره من يصحح توبته إلى الله، ما دام يؤدي واجبه بالتأدب أمام ملكه،أي إنه يطيع الله طاعة المخلوق لخالقه،و يتأدب معه أكثر من أن يتأدب مع حاكمه الذي يطيعه طاعة محكوم للحاكم من جنسه،و في حث الشاعر على الخلق الحسن والتأدب مع الله و التوبة إليه قال :

فَزُرْ وَ تَأَدَّبْ بَعْدَ تَصْحِيحِ تَوْبَةٍ تَأَدُّبَمَمْلُوكٍ مَعَ المَلِكِ الحُرِّ15

و نلاحظ في شعر التازي أن نزعته الأخلاقية قوامها الدين الإسلامي الذي يدعو إلى التقوى بالله من وجهة،إضافة إلى أن الشاعر يعد من الذين حرصوا على نشر الأخلاق الإسلامية و الإلحاح على غرسها في نفوس البشر .ولقد نحى الشاعر أحمد بن عيسى البرنسي منحى غيره ممن سبقه من الشعراء في عصره من حيث نزعته الخلقية ذات الصبغة الدينية، حيث أشاد بالأخلاق الفاضلة،دون أن يختصها لذاتها في شعره،بل عرض إليها في غير غرض و لكل غرض غاياته و مقاصده.

و على رغم الكيفية التي أشار الشاعر بوساطتها إلى النوازع الخلقية فإنه لمح في شعره إلى نزعة خلقية ذاتية،تهدف إلى الإشادة بما حليته شخصيته من خصال فاضلة كالعز و الرفعة و العدل، و هي شيم أشار الشاعر إليها في معرض الفخر بالنفس،إضافة إلى أنه دل بها على أنه ركب مجلى العز و الشموخ و السؤدد كلما أقدم عن شجاعة إلى ساحة الوغى،مريدا بذلك دك كل ذي جبروت و طغيان،و هو يأمل إزاء ذلك استئصال الظلم باستئصال الظالم،و انتزاع الحق منه للمظلوم، و الشاعر في مهامه الأخلاقية يسعى إلى تحقيق غايات نبيلة،و هي إفشاء العزة و الكرامة، و تأسيس العدل و المساواة بين الناس،قال:

وَ قَلَّدْتُ سَيْفَ العِزِّ فِي مَجْمَعِ الوَغَى وَصِرْتُ أَمَامَ الوَقْتِ صَاحِبَ رِفْعَةٍ

وَ أَقْهَرُجَبَّارًا وَأَدْحَضُظَالِمًـا وَ أَنْصُرُ مَظْلُومًا بِسُلْطَانِ سُطْوَتِي 16

و لا يمكن لمن يجهل شخصية الشاعر و منزعه الديني أن يلاحظ في منزعه الخلقي هذا ما يدل على علاقته بالدين مثلما لاحظناه في شعر غيره من الشعـراء، إذ لانجزم في الحكم على ما تبقى من شعره كله،إنما تسنى لنا القول إنه عقد صلة بين صفاته المحمودة التي افتخر بها و بين سلطان سطوته، فلا ندري أيها سلطانا اكتسبه و هو المقصود،و أيتها سطوة و قدوة مكنته من بسط فضائله الخلقية التي نزعإليهافيشعره،كمايمكنناالقولبأننزعتهاالأخلاقيةمرتبطةبالرمز والإحياء،وهما خصيصتان تميز الشاعر بهما بمثل ما عمد إليهما شعراء آخرون صنفهم ابن مريم المليتي صاحب البستان على أنهم من العلماء و الأولياء أهل الدين و العرفان و الكرامة و الأخلاق الحميدة.

و مما نؤكده للشاعر البرنسي في نزعة أخلاقية دينية صرفة في الشعر من قصيدة تزخر بمعان خلقية سامية سمو نفس تستثيرها دوافع دينية دائما و هي خلال تدل على الإيمان المطلق بالله عز وجل و علا17، وهو الرزاق الوهاب المعين عبده الضعيف بمحاسن الأخلاق ،لأنه تعالى من يسوق الإنسان إلى الهداية لا يضل أحدا بفضله الكريم ،بل تطمئن القلوب عن يقين بفضله و جوده لأن سخائه لا ينضب مطلقا ، و أفضاله يجودبها الله تعالى فيكسب الشاعر معرفة كنوزمن حقيقة تفرد بها تعالى وتنزه بها أيضا عن عباده وهي حقيقة لا يزنها بحر يخفى عن تبيان أغلب وجوهها و صورها وهي الحقيقة التي سلبت قلب الشاعر، فأفضت به إلى عزلة الناس جميعهم و التوق عن لظى إلى رؤيتها بالبصيرة ،حيث يمكننا أن نتبين هذه النزعة الخلقية الدينية في شعر البرنسي الذي طرق فيها شيما من مثلالإعانـة و الإحسان والفضل والمنّ والجود ودوامه والعلم بلا جهل والمحبةوالنور و الرفع و التقدير، قال البرنسي في ذلك:

بَدَأْتُبِسْمِ اللَّهِ جَلَّ جَلاَلُـــهُ	طَلَبْتُ مِنَالوَهَّابِحُسْنَ الإِعَانَةِ
فَسُبْحَانَمَنْيَهْدِي العِبَادَ بِفَضْلِـهِ	وَيَفْتَحُأَبْوَابَ القُلُوبِ بِمِنَّـــةِ
وَ يَنْعَمُبِالأَفْضَالِوَ الجُودِدَائِمًـا	وَ يَرْمِى بِمَوْجٍمِنْ عُلُومِ الحَقِيقَةِ
وَلَيْسَ يَقِيسُ البَحْرَ مَنْ كَانَ جَاهِلاً	وَلَكِنْبِفَضْلِ اللَّهِ تَسْلُكُ سَفِينَتِـــي
سَفِينَتُنَا يَا ذَالَئِنْ كُنْـتَ عَاقِــلاً	فَتَجْرِيبِتَحْقِيقٍ وَ نُورٍ وَ مَحَبَّةٍ
وَسَرَحْتُطَرْفِي فِي المَعَانِي تَنَزُّهًـا	وَخُضْتُ بِحَارَ الكَشْفِ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ
فَارْفَعْقَدْرًا ثُمَّاخْفِضْمَنْصِبًـــا	لِأَرْفَعِمِقْدَارٍ وَأَخْفَضِرُتْبَتِـــي18

لقد جلت النزعة الأخلاقية الدينية للشاعر في الحب الإلهي و الانصراف إليه بالحس و القلب و الفكر و العقل و الدين معا، و يزكي مذهب الشاعر هذا قوله نثرا(... طفت مشارق الأرض و مغاربها في طلب الحق و استعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس و تحليت بقدر الإمكان في مرضاة الحق فما طلبت قرب الحق بشيء إلا كان مبعدي و لا في معالجة النفس بشيء إلا كان لها معينا ولا

توجهت لرضاء الحق إلا كان الله عز وجل في الجميع)19 ثم يستند البر نسي في إثبات منزعه الخلقي الديني إلى تأثره بمن سبقه من الشعراء ،شاعرا يصف الحب الإلهي (... و لما يرد من الله تعالى أمرا و نهيا و خيرا و قهرا و عبودية لا تصحبها رؤية، و رؤية لا يصحبها اعتماد واتساعا لا يصحبه ضيق و ضيقا لا يصحبه اتساع إلا كنت ممتثلا في ذلك قول القائل:

قَدْ كُنْتُأَحْسِبُوَصْلَكَ يُشْتَرَى   بِنَفَائِسِالأَمْوَالِوَالأَرْبَـاحِ

وَظَنَنْتُجَهْلاً أَنَّحُبَّكَهَيِّـنٌ   تَفْنىعَلَيْهِ كَرَائِمُ الأَرْبَـــاحِ

حَتَّى رَأَيْتُكَ تَجْتَبِي وَتَخُصُّ مَنْ   تَخْتَارُ هُبِلَطَائِفِالأَمْنَــــاحِ

فَعَلِمْتُأَنَّكَ لَاتُنَالُ بِحِيلَـــةٍ   فَلَوَيْتُ رَأْسِي تَحْتَ طَيِّ جَنَـاحِ

وَجَعَلْتُ فِي عِشِّالغَرَامِ إِقَامَتِي   فِيهِ غُدُوِّيدَائِمًا وَ رَوَاحِ)20

وإذا كانت طبيعة النزعة الخلقية في الشعر الزياني أغلبها ديني ، فإن الشعراء لم يكتفوا بالدعاء أو التضرع لله بذكر صفاته الجليلة ، وإكرامه تعالى خلقه بمكارم الأخلاق ،بل ربطوا نزعاتهم الخلقية بماآثروه عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه وتابعيه ، كما اقتدوا بأخلاق معلميهم و انصرفوا في احتفالاتهم بالمولد النبوي الشريف إلى نظم كثير من القصائد المولدية، يشيدون فيها بمكارم الأخلاق فضائلا أنار بها المصطفى على البرية قاطبة ، قد أنشد أغلب الشعراء في ذلك ممن ذكرناهم جلهم فيهذه الدراسة من أولها إلى فترة اختص فيها الشعراء بكثرة النظم في مدح النبي (صلعم) على عهد الملكالزياني العادل بمثل ما وصفته المصادر و الكتب القديمة ، أقر أبو حمو الثاني الاحتفال بمولد النبي (صلعم) في كل عام يجلس فيه العلماء و منهم الشعراء ينظمون غرر القصائد في مدح الرسول (صلعم) سميت بالمولديات واكتنزت مضامينها بذكر أفضل الشيم و الصفات والخصائل لأفضل خلق الله يمكننا أن نورد من هذا النوع شعرا لمحمد بن يوسف القيسي الذي مدح الرسول (صلعم) ،فذكر بعض صفاتهالفاضلة من إحسان و جود وصدق وحلم و عز كلها مبنية على الهداية و التقوى فقال:

جُودٌ وَ إِحْسَانٌ وَ صِدْقٌ فِي الهُدَى   حُسْنٌ وَ عَقْدٌ فِي التُّقَى مُسْتَحْكِمُ

الحِلْمُأَوْسَعُوَ الجَنَابُ مُؤَمَّــلُ   وَ العِزُّ أَمْنَعُ وَ السَّجِيَّةُأَكْــرَمُ21

ومما نؤكده في هذه الدراسة هو أن طبيعة النزعة الأخلاقية الدينية في الشعر الزياني قد ارتبطت بشخصيات شاعرة انصرفت في حياتها إلي المجال الديني أكثر و كانت قد أبحرت في جميع علوم عصرها و برعت في الآن ذاته في الأدب ومنه الشعر بخاصة من جميع فنونه ، على أن المصادر الأصول تذكر لنا أسماء كثيرة ، تفوقت في الشعر، و ربطته بالعلوم الدينية و هي تشيد في منظوماتها بمكارم الأخلاق دائما،فعرفتنا بالفقيه محمد بن الخطاب الغافقي (ت:636هـ)(نزيل تلمسان من أهل مرسية كان من أبرع الكتاب خطا و أدبا و

شعرا ومن أعرف الفقهاء... ارتحل إلى تلمسان وكتب بها عن أمير المؤمنين يغمراسن بن زيان)22، كما عرفتنا المصادرعلىمحمد بن البناء
(كان شاعرا أديبا عالما محققا متخلقا ظريفا)23و محمد بن عبد الله التنسي (ت: 899 هـ) (الفقيه الجليل الحافظ الأديب المطلع)24، و محمد بن عبد الرحمن الحوضي التلمساني (ت:910هـ)25 ، (كان عالما أصوليا شاعرا مكثرا في شعر العقائد)26، و محمد عاشور بن علي السلكسيني الجادري (ت: 1014هـ)27 مخضرم بين فترة الزيانين و مجيء العثمانيين فهو من أكابر العلماء و الفقهاء والخطباء و الحفاظ و الأولياء الصالحين له منظومات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم و كذلك الفقيه الولي الصالح العالم الجليل محمد بن عبد الجبار بن ميمون (ت: 950 هـ)28 له منظومات في مدح النبي (صلعم) و غيرهم ممن سخروا شعرهم الأخلاقي في خدمة الإسلام و تعاليمه الحنيفة ،كتلك القصيدة لأحمد المناوفي (ت: 930 هـ)29 التي مطلعها :

رَضَيْتُبِقِسَمِاللَّهِثُمَّاخْتِيَارِهِ وَ جَنَّبْتُ نَفْسِي السَّعْيَ حَوْلَ اغْتِيَالِهِ

وَفَوَّضْتُأَمْرِي لِلَّذِي هُوَ عَالِمٌ بِأَسْبَابِإِصْلاَحِالفَتَى وَ اخْتِبَالِـهِ

إلى أن يصل فيها إلى الثناء على خير الآنام من اتصف بأفضل الأخلاقو الخصال سيدنا محمد (صلعم) حيث يقول :

وَمِنْ بَعْدِ حَمْدِاللَّهِأُهْدِي صَلاَتَهُ وَ تَسْلِيمَهُلِلْهَاشِمِيِّ وَ آلِــهِ30

و قد مدح النبي (صلعم) بقصائد أتى فيها بالعجب العجاب فمنها:

وَ مِنْ بَعْدِ بِسْمِ اللَّهِ وَ الحَمْدِ إِذْ بِهِ بَدَاءَةَمَنْ يَبْغِي الكَمَالَ وَ يَطْلُبِ

و فيها من الأبيات عدد سور القرآن العظيم و منها في مدح النبي (صلعم) و هي هذه:

سَلاَمٌ عَلَى سُكَانِطِيبَةَ وَ الحِمَى فَهُمْأَسْلَمُوا قَبْلِي سَلِيمًا مُسَلَّمًا

نَأَتْدَارُهُمْ عَنِّي فَظِلْتُ لِبَيْنِهِمُ كَئِيبًا قَرِيحَالقَلْبِصَبًّا مُتَيَّمًا31

و يتضح لنا مما سبق أن شعر النزعة الأخلاقية ذي الطابع الديني قد وصل فيه الشعراء نزعتهم الأخلاقية بالطبيعة،حيث يتجلى ذلك في حنينهم إلى الأماكن و البقاع المقدسة،و توقانهم إلى لقاء الحبيب المصطفى(صلعم)،و التبرك بـه و بأصحابه التابعين و الأولياء الصالحين.

ولعل من الصور الشعرية التي تدل على ذلك تلك المولديات التي احتفى بها الشعراء في مناسبات كثيرة ،و هم يعددون فيها المناقب الأخلاقية للرسول (صلعم)،كما يذكرون إزاءها معالم من الصور الطبيعية والصور المصنوعة،فيربطون حينئذ بين النزعة الأخلاقية الدينية و بين الطبيعة لتزكية أفكارهم و معانيهم و غاياتهم الخلقية ،بيد أن الشاعر محمد بن يوسف القيسي في غرض الغزل يبدي حبه للرسول (صلعم)،و في مولدية من

مولدياته يذكر صورا من الطبيعة الصامته كالبرق،و منها السائلة كالوادي،و منها الجامدة كالأبرقين و رامةو رند الحجاز و هي أماكن مختلفة،فيقول معبرا عن نزعته الخلقية الدينية:

يَهْفُو لِبَرْقِ الأَبْرَقَيْنِتَعَـلُّلَا   وَ القَلْبُ مِنْهُ دَائِمًا خَفَقَانُــهُ

أَتَرَى أَرَى وَادِي العَقِيقِ وَ رَامَةٍ   وَ يَلُوحُ رَنْدُ الحِجَازِ وَ بَانُهُ32-

وإن ما يمكن أن يجلو لنا في دراسة هذا الشعر الأخلاقي هو أن أغلب من نظم فيه قد رسم الكثير من المعاني الدينية ،والدارس للشعر الأخلاقي لهؤلاء الشعراء،يستجلي في أغلبه أغراضا دينية من زهد وورع و توبة و مدح الله أو ما يصطلح عليه في العلوم الدينية الشرعية بعلم التوحيد،ثم مدح النبي وما يسمى بالمولديات عهد الزيانيين،كما يتضح للدارس ذلك الربط الذي عقده الشاعر في شعره بين نزعته الخلقية الدينية ووصفه للأماكن المقدسة و التوق إلى زيارتها لأداء الفرائض بها و زيارة قبر النبي كما ذريته، و الخلفاء من بعده و الصحابة و التابعين و الأولياء الأصفياء،و الاقتداء بهم جميعا في الخلق الحسن الفاضل . و قد تسنى للشعراء أيضا أن يفعموا شعرهم الأخلاقي بالمعاني الدينية السمحة ،و لسببأو آخر اندمجت النزعة الخلقية الدينية مع النزعة الخلقية الاجتماعية في الشعر الزياني ،سوى أن الخطابات الشعرية للشعراء السابقين و غيرهم، لجؤوا فيها إلى استعمال الأساليب الإنشائية من نداءو أمر و نهي و تعجب و استفهام و ترغيب و ترهيب و توكيد و جزم، و كل ما يصلح من تعابير يتوجهون بها إلى مجتمعهم المعاصر،يذكّرون فيها الفرد و المجتمع معا،بما يصلح له من خلق و ما يجب عليهأنيتصفبه ،ويضربونلهاالأمثلةمنالدينبخاصة والتاريخ والأمثال والحكم والمغازي والعبر، و يناشدونهفيذلكالفضيلة والتملص من الرذيلة بأية حال.

1) مختصر تفسير الإمام الطبري. دار الشروق، 1402هـ/ 1972م، سورة: القلم، الآية: 4، ص:649.
2) مختصر سنن الترميذي. شرحه: د: مصطفى ديب البغا- اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، دمشق سوريا، 1418هـ/1997م، باب البر والصلة، رقم الحديث: 2004، ص:274.
3) لسان العربلسان العرب- ابن منظور الإفريقي. مج: 10، دار صادر وبيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1388هـ/ 1968م،مج: 10،ص:86.
4) البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان- ،محمد بن مريم التلمساني .ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، 1986، ص69-70.
5) الإحاطة في أخبار غرناطة – لسان الدين بن الخطيب. ، تحقيق: محمد عبد الله عنان. ط/1، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1394هـ/1974م، مج:2 ، ص204.
6) م.ن: 205 .
7) م.ن: 148.
8) م.ن:209.
9) م.ن:148.
10) البستان -ديوان المطبوعات الجامعية ،- محمد بن مريم التلمساني. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص:41.
11) م.ن:43.
12) م.ن:60.
13) م.ن:62.
14) م.ن:61.
15) م.ن:63.
16) م.ن:48.
17) م.ن:47-48.
18) البستان – المطبعة الثعالبية، ص:47-48.
19) م.ن: 48.
20) م.ن ص:50.
21) نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان- محمد بن عبد الله التنسي. تحقيق: محمود بوعياد المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1405هـ/1985م ،ص:176 .
22) البستان – المطبعة الثعالبية ،ص :227 .
23) م.ن: 226 .
24) م.ن : 248 .
25) م.ن : 252 .
26) م.ن: 287 .
27) م.ن: 17 .
28) م.ن ،ص.ن .
29) م.ن:18.
30) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- يحي بن خلدون. الجزائر/ 1332هـ/1913م، ج:2، 31- ص:44 .
31) م.ن:47-48.